

أوجه التقارب بين الثقافتين العربية والأمازيغية

حسين عبدوس

بسم الله الرحمن الرحيم

إن التراث الثقافي الإنساني بمكوناته المختلفة وأساليبه المتنوعة يعد من أهم مقومات تطور الأمم والمجتمعات، ويعكس مستواها الثقافي الحضاري.

ومن ذلك فإن الباحثين في علوم التاريخ والحضارات يعتبرون ذلك التراث هو الوعاء الذي تبرز فيه الهوية والشخصية القومية لهذه الأمم والمجتمعات وبقدر تماسك هذه المقومات فيما بينها بقدر ما يتوفر ضمان عوامل استقرارها وتواصلها عبر الأجيال وعدم ذوبانها في الكيانات الأخرى.

لقد شكل هذا التراث الحضاري للمجتمع الجزائري لبنة الوحدة والتواصل وكان ذلك التنوع في الموروث الحضاري للمجتمع الجزائري سدا منيعا ضد الغزاة وأهدافهم سواء في القديم أو في العصور الحديثة.

وكان للعقيدة الإسلامية النور العظيم في الحفاظ على تلك المقومات ومراعاتها وشحذ الهمم في التصدي لكل ما كان يستهدف المساس بهذه الوحدة المتجذرة في العمق الحضاري للتاريخ المكتوب والشفهي المتوارث، ومن ذلك في كل مرة كان السحر ينقلب على الساحر ويخرج الغزاة متدحرين يجرون ورائهم ذيول الخيبة والفشل دون تمكنهم لا من العقيدة ولا من اللغة ولا التراث ولا ولا

فالمجتمع الوطني الجزائري يعتز بثقافته الثرية والمتنوعة من شاوية وقبائلية وترقية وشنوية وميزابية والتي تعود في أصلها إلى الثقافة الأمازيغية - لا يزال بنفس الافتخار والاعتزاز لأنه يدرك جيدا الخصائص التي تميز كلا منها خاضعة للظروف الزمانية والمكانية والبيئة التي تتواجد كل ثقافة من هذه، والبيئة لها دور فعال في تطور السلوكات لعدة اعتبارات، إما لقربها من محطات تجارية وبحرية، أو بعض المواقع التجارية الكبرى، ونذكر هنا ما للأسواق الأسبوعية أو الشهريّة في القديم من فضائل في نقل المعلومات من مكان لآخر والاستفادة من المواد التي تصل إلى هذه الأسواق من أماكن بعيدة على سبيل المثال ...

فيبقى الآن أن نقول بأنه لا يمكن لأي مؤرخ أو مثقف أن ينكر الملامح والمقومات الأمازيغية

لهذا المجتمع الجزائري ، بمختلف مكوناته لكن ما يمكن توضيحه هو أن هذا الكم الهائل من التراث أمتزج والتحم مع الثقافة الجديدة الإسلامية ، وتكيف معها دون أي إقصاء من الطرفين وكان من نتائج هذا التلاحم والامتزاج بروز حواضر ثقافية في الشمال والجنوب والوسط لا يتسع المجال لذكرها - وأنجبت هذه الحواضر عدداً من العلماء وشدت إليها الرحال للأخذ عنهم والاستزادة من معارفهم .

وما إقبال هذا الأمازيغي بحماس لتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم إلا أنه لم يجد منهما ما يفره عن ثقافته ولغته ووجدانه بل وجد تكاملاً وتقارباً ، استأنس لهما كثيراً عكس ما قد كان من الإغريق والرومان ، وأقوام أخرى اعتبرت من الغزاة الغرباء .

أما التقارب السريع الحاصل بين المجتمع الأمازيغي في شمال إفريقيا والثقافة الإسلامية ومستويات التعايش التي تحققت في ظروف قياسية بالنسبة لشعوب آسيا وجنوب أوروبا الشرقية ، يبقى هو اللغز والسر الذي حير كثيراً من المؤرخين الغربيين في دراساتهم وبحوثهم مما جعل البعض منهم ينحرف عن جادة الصواب .

والحقيقة الجلية في كل هذا تتمثل في التقارب بين الثقافتين من عدة أوجه في اللغة والتاريخ والجغرافيا والبيئة والمزاج النفسي .

ذلك ما سنراه معا في هذا العرض المتواضع .

وجه التقارب بين اللغتين العربية والأمازيغية:

إن علم اللسانيات هو أحد أهم الوسائل الكاشفة عن توضيح الاتصالات بين الأفراد من بعدهم الشعوب عبر أحقاب من الزمن وهو الكفيل بفك الرموز المرسومة على الصخور والأحجار الأثرية القديمة ، وأما الاعتماد على إبراز جوانب من الهجرات بين الشعوب في العصور الماضية قد لا يكفي لعدم توفر أية مستندات أو وثائق تثبت لغة تفاهم بين شعب وآخر ، وبالتالي ذهب علماء اللسانيات إلى البحوث المقارنة وهكذا مثلاً يعلمنا البحث المقارن في اللغات الهندية والأوروبية الكثير عن تاريخ ولغات تلك الشعوب القديمة ، التي لم تصلنا عنها أية مصادر واقعية تاريخية¹ .

أما حينما نبحت بالمقارنة عن الجمل اللسانية المستعارة من لغة إلى أخرى فإننا نكتشف حقائق كثيرة عن اتصالات بين الشعوب في العصور القديمة فعلى سبيل المثال كتابة التيفيناغ على جبال الطاسيلي تضيف تأكيدات على أن الفينيقيين الكنعانيين قد كانت لهم اتصالات وإحتكاكات مع سكان شمال إفريقيا بالخصوص منذ القديم ، واللغة الفينيقية لغة سامية ، وذلك التفاهم والتقارب الذي حدث بين الأمازيغيين والفينيقيين أنتج حضارة بونة وصدادي وشرشال في الشمال وتيفناغ الأهقار في الجنوب .

1 - كتاب اللسانيات واللغة العربية ص 204/ 1981 تونس .

هذه اللغة، أي التيفناغ التي أكد فيها أكثر من مؤرخ من أمثال شارل أندري جوليان ولوت وميروسى الروماني أنها أخذت من اللغة الفينيقية السامية² ولولا قرابة الأمازيغية من الفينيقية ما كان ليحدث ذلك التعايش والتفاهم الحاصل بين الشعبين³.

لقد توصل الكثير من الباحثين في أصول اللغات وتاريخها خلال القرن الماضي وما قبله إلى أن اللغة الأمازيغية مشتقة من اللغات السامية وهي النتيجة التي نادى بها كل من المؤرخ هنري باسي في كتابه «الأبجدية البربرية» عام 1920، والمؤرخ رينان في كتابه «التاريخ العام للنظم»⁴ المقارنة بين اللغات السامية 1878 وبما أن اللغة العربية هي سامية فإن هناك علاقة قرابة بين الأمازيغية والعربية.

هذه العلاقة بين اللغة الأمازيغية والعربية يقول فيها الدكتور يوسي أرو وهو مؤرخ وأستاذ محاضر بجامعة هلنسكي نلاحظ أن ثمة تشابها قريبا جدا بين اللغة الأمازيغية بشمال إفريقيا والصحراء وبين اللهجات العربية في شبه الجزيرة العربية ومحيطها من الجنوب اليمن وعمان إلى الشمال فلسطين ولبنان . . . ويشير الدكتور أرو أن هذا التقارب يبرز في بعض التشابه في المفردات اللغوية وأسلوب النطق بها التي تتطلب حركة معينة في اللسان والفكين والحلق. ونفس التقارب نجده في اللغات: الفينيقية وتيفناغ والأمازيغية والعربية⁵.

ودعم هذا التقارب الفتح الإسلامي حيث استعارت الثقافة العربية من الأمازيغية كمية من المفردات والعكس صحيح سيما أسماء الأماكن والنباتات مثل كلمة «آذار» من الذروة وكلمة «أخام» من الخيمة، وثمطوث أي المرأة، من الطمط العادة الشهرية.

بينما هناك كلمات عربية تنطق بالأمازيغية لتسهيل عملية التواصل مع البيئة والمحيط.

يقول الشيخ أبو يعلى الزواوي في هذا الصدد، أن اللغة العربية الفصحى لم تولد من الفراغ إنما يعرف الباحثون أنها تجمع بين ثنائها كل اللغات السامية كالسريانية، والأرمية والعبرية والأمازيغية كلها موجودة في القاموس العربي، واللغات الأمازيغية كما لاحظ ذلك مؤرخو اللسانيات موجودة بجمال «ردفان»⁶ في اليمن وصنعاء، ويظهر التقارب في حركة أسرارير الوجه.

ويذكر المؤرخ مرسل كوهين (Marcel Cohen) في كتابه (محاولة مقارنة اللغات الحالية باللغات السامية 1947 أن أوجه التقارب بين الأمازيغية والعربية كثيرة، وجاء بمائتين وخمس وثلاثين مقارنة بين مفردات سامية مختلفة ويشير إلى أصواتها التي تؤدي

2 - المجلة الإفريقية العدد 35 ص 42 / المكتبة الوطنية 1912.

3 - التاريخ العام للنظم المقارنة بين اللغات السامية - رينان - 1978 الجزء الثاني ص 321.

4 - محاضرة في اللغات السامية - يوتي أرو - الصفحة 52 / 1988 هلنسكي.

5 - أبو يعلى الزواوي تاريخ الزواوة منشورات وزارة الثقافة ص 41.

6 - مقارنة اللغات السامية باللغات الحامية - مارسال كوهين - ص - 73 / 1947.

نفس المعنى والحركة⁷.

وللتوضيح أكثر أورد الكاتب أمثلة عن هذه المقاربة وهي مفردات موجودة في اللغة العربية والأمازيغية بالإضافة إلى تلك التي سبق ذكرها وهي تنتسب إلى الزمن القديم ومتقاربة في النطق إلى حد التطابق وتشمل أسماء الأسرة وأعضاء الجسم والأرقام وأشياء في الطبيعة مستعملة مثل:

- أب / إاثا / يابا / أفا
- أم / إاما / أما / يما
- ولد / إيلت / ملد / إند
- لسان / إيلس
- سين / إاسن
- ظفر / أظفر
- دائم / د
- يما / دايم
- البريد / أبريد
- ماء / أمان
- مات / إيمات / إيموث
- ورق / إوراق
- إثنان / سان
- ست / سيدس
- واحد / غيون
- الصلاد / اصلااد / حجر الصلاد

وبخصوص النحو يلاحظ من هذه الكلمات أن أهم شيء يظهر عند مقارنة اللغات السامية بما يشابهها من لغة كالأمازيغية في الشمال والجنوب الجزائري، هو أن لها بنية قواعدية متشابهة كما أن لها عناصر متشابهة في تركيب الصيغ خاصة في الألف والتاء والياء، وهي الحروف المتحركة في الرفع والنصب والجر⁸.

أما في الأسماء نذكر حرف التاء والذي هو علامة التأنيث وهذا موجود في العربية، لكن في الأمازيغية يوجد هذا الحرف في مطلع الكلمة وفي نهايتها.

كما أن جمع التكسير موجود في العربية والأمازيغية والاحتمال الوارد أن هذا الجمع تطور في هاتين اللغتين بصفة مستقلة عن بقية اللغات السامية: وإذا ما تمت مقارنة اللغتين من مبدأ السكون

7 - الصحراء في عصور التاريخ ص 352 / 1976 (لغة أجنبية).

8 - الأصالة الجزء الثاني الخاص بملئى تمناست للفكر الإسلامي ص 70.

والحركة فإنه يبرز تقارب كبير بين اللغتين العربية والأمازيغية سيما في تصريف الأفعال ففي الأمازيغية كما في اللغة العربية مزيادات أفعال تتفق والصيغ التالية: «أفعل، أفعلت، أفتعل» وصيغة أفتعل تبدأ بحرف التاء، وأما صيغة الفعل فمبدوءة بحرف النون في اللغة الأمازيغية والعربية والسامية الأخرى حتى العبرية منها⁹.

أما في حالة الغائب فالفعل يبتدئ بحرف (لي) وفي اللغة العربية يبتدئ بحرف (ياء) وهناك تقارب لا يكاد يميز في النطق في بعض المناطق، وفي حالة الغائب المؤنث نجد حرف التاء حاضرا في اللغتين العربية والأمازيغية وأما المتكلم بصفة الجمع كذلك فضمير النون أيضا في كلتا اللغتين، وفي بعض المناطق يضاف في البداية الألف المخففة.

لاشك أن مثل هذا التقارب والتشبهات لم تنشأ من محض الصدفة وفي نفس السياق يطرح سؤال هام جدا فما الذي يستخلص في تقارب اللغة العربية واللغة الأمازيغية؟ الجواب هو أن هذه القرابة ولو كانت بعيدة في الزمن تشير إلى مرور عصر في التاريخ كان فيه الشعبان شعبا واحدا وهنا يضمحل عنصر الصدفة.

وهكذا فإن الاتساع الجغرافي الكبير في منطقة اللغات السامية والحامية في غرب آسيا وشمال إفريقيا قد يثير إلى عدم انحدارها كلها من أصل واحد ويقتصر التقارب على لغات متشابهة. أما العرب والمصريون والأمازيغ فهم من نفس العنصر البشري مع وجود اختلافات ضئيلة تعود إلى الزمن والمكان والبيئة المتنوعة، بعكس الإثيوبيين والمتحدثين باللغات التشادية فهم سود من جنس متميز¹⁰.

ويتعدى هذا الجانب اللغوي إلى الخط أيضا حيث نجد أن الخط الأمازيغي (تيفناغ) هو جزء من الخط العربي المسند القديم، وتطور التيفيناغ كان لابد أن يتم بذات الأسلوب الذي تطور به السند العربي وقد استفاد الأسلاف من جهود قرون طويلة من الاتصال والاحتكاك وكثيرا هم كذلك بالحرف العربي، ووجود حرفا يتجاوب مع حاجاتهم في الاتصال مع الآخر. وورد هذا في كتب كثيرة منها لهنري لوت تاريخ النحو المقارن ونص أن التيفناغ هو شكل من أشكال الخط العربي القديم¹¹.

وجه التقارب في التاريخ والنسب:

لقد أجمع الباحثون في علوم التاريخ أن الأصل في الجنس الأمازيغي هو نفسه الأصل في الجنس العربي واستدلوا على ذلك بكثير من الشواهد والأدلة، واثبتوا بما لا يدع مجالا للشك أن الثقافة العربية بكل مراحلها سواء قبل مجيء الإسلام أو بعده لم تنظر إلى الأمازيغ على أنهم

9 - أبو يعلى الزواوي نفس المرجع السابق ص 44.

10 - تاريخ النحو المقارن لاندري جوليان.

11 - تاريخ البربر في شمال إفريقيا عثمان العكاك - أبو يعلى الزواوي المرجع السابق ص 32.

جنساً أوروبياً أو جنساً إفريقياً محضاً بل نظر إليهم دائماً كجزء من الجنس العربي والثقافة العربية وكان ضباط الاحتلال الفرنسي يطلقون كلمة عرب حين يتحدثون عن الجزائريين وأنشؤا ما يسمى بالمكاتب العربية لرعاية شؤون الجزائريين فالمؤرخون على صنفين القدامى منهم والمحدثين سواء من المشرق أو المغرب أو من الغرب الذين كتب القليل منهم بنزاهة وإخلاص للتاريخ ولهذا توجد بعض الثغرات التي يصعب فهمها.

فالمؤرخون العرب القدامى أمثال الطبري والمسعودي وابن إسحاق وابن عبد البر والواقدي وابن عبد ربه وفي مقدمتهم عبد الرحمن ابن خلدون الذي عاش الأمازيغ، وهو مغاربي المولد بتونس وحضرمي يمني الأصل خير عالم بالأنساب يعتمد عليه كثيراً، قال عند كلامه عن الأمازيغ: «وأما شعوب هذه الأرض - والمقصود الأمازيغ - فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغس ويلقب بمادغس الأبرتر هما معا ابنا «بر وحسم ابن حزم في كون أبيهما واحدا»، ثم يضيف ابن خلدون بأن القبيلتين العظيمتين كتامة وصنهاجة هل هما من البربر أو لا فقال: «إن كتامة وصنهاجة شعوبها من اليمن تركها إفريقش بن صيفي بإفريقيا مع من أنزل بها من الحامية»¹².

وشعوب اليمن من العرب العرباء القحطانيين، وهم من أبناء يعرب بن قحطان والعرب قسمان العرب العاربة والعرب المستعربة هم أولاد عدنان الذين صاهرهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فعدنان الذي هو آخر من يجب معرفتهم من نسب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو عدنان حفيد سيدنا إسماعيل عليه السلام ومن أولاده سعد، ونزار ومضر ومنهم فهر الذي لقب بقريش وعلى هذا الحكم يتضح أن كل مستعرب عربي ويتضح كذلك أن القحطانيين هو أعرق في العربية من العدنانيين، ويذهب التاريخ في التحليل إلى نسب قحطان على أنه يعود إلى إرم بن سام¹³.

وبخصوص سكان هذه المنطقة الصحراوية تقتصر في التعريف بهم عن أقوال كل من البكري والمسعودي وابن بطوطة ثم المؤرخ الكبير عبد الرحمن ابن خلدون ثم المؤرخ الجزائري الكبير أبوراس الناصري الذي ذكر في تأليفه «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار» سيدي عبد القادر برد الله ضريحه وأسكنه من الفردوس فسيحة، وكان ذا معرفة بتلك البلدان كما مر بها وتخطاها إلى السودان... وكان إخباره لي بذلك، لما سألته سنة أربع وتسعين ومائة وألف... إلى أن قال:.. ثم إن صنهاجة أهل اللثام المعروف عندنا بالطوارق مساكنهم بين السودان وبين الرمال التي هي تخوم بلاد (البربر) الأمازيغ متصلون بالبحر المحيط لهذا العهد في المغرب إلى ساحل النيل بالمشرق... إلى أن يقول في وصف بيوتهم من الجلد وإن ذبحوا لضيف جمعوا له كل اللحم

12 - العرب واليهود - الدكتور أحمد موسى - ص 8-9.

13 - تاريخ البربر في شمال إفريقيا / المجلة الإفريقية ص 46/ 1935.

فياكل والباقي يتزود به وبأراضيهم رهط يقال لهم «كنت» بأشمام وهي الآن بعضها تابع لمالي وبعضها لموريتانيا وأفراد هذه القبيلة ينتمون إلى بني أمية والأنصار، وقبيلة كدالة منهم أي من صنهاجة.

أما ابن بطوطة وأبو عبيد البكري من قبل يتفقان على أن الطوارق قبيل بربري من أقدم سكان الصحراء، ويذكر ابن بطوطة في وصف تادمكة في أدارا إيفوغاس ما يلي: «... وتاد مكة أشبه بلاد الدنيا (بمكة المكرمة) وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهي أحسن بناء من مدينة غانا ومدينة كوكو وأهل تاد مكة بربر مسلمون وهم يتنقبون وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض من غير اعتمال .. إلخ» ثم تطرق البكري إلى اللباس والعادات والثقافة التي تشبه عادات سكان الجزيرة العربية¹⁴.

وأما المؤرخ السعودي فيقول في هذا السياق أن أراضي الأمازيغ كانت أراضي فاسكين ببلاد الشام، وأن ملكهم جالوت فلم يملك عليهم بعده ملك وأنهم بعد فرارهم انتهوا إلى بلاد أفريقيا الشمالية فانتشروا هناك واختارت مجموعات الأمازيغ سكن الجبال والأودية والرمال وأطراف البراري وجبال الهقار، وهذا القول يطابق ما قال القديس أوغستين الذي يذكر أنه سأل أهل بونة: من أين أتوا فقالوا أتينا من أرض كنعان¹⁵.

أما الدكتور أحمد سوسة المؤرخ العراقي الشهير بأبحاثه في السلالات البشرية في الصفحات الثامنة والتاسعة والعاشر، من الطبعة السادسة لكتابه (العرب واليهود) في التاريخ فيذكر: أن القبائل المعروفة بالبربر (الأمازيغ) التي استوطنت أراضي شمال إفريقيا كانت تقيم في الأصل في فلسطين إلى جانب الكنعانيين ثم أخرجت منها في عهد الملك داوود عنوة لكلام يطول ...

وهذا شيخنا الجليل المؤرخ عبد الرحمن الجليلي في كتابه تاريخ الجزائر الجزء الثاني يعرف هؤلاء الطوارق بقوله: «... هم أولئك الذين وقع بشأنهم إجماع معظم مؤرخي هذا الشمال الإفريقي بأنهم منحدرين من سلالة الجذر الأمازيغي المغربي الذي سكن أسلافه من أحقاب قديمة، هذا الوطن الممتد من صحراء ليبيا إلى المحيط الأطلسي ومن البحر الأبيض المتوسط إلى حوض السينغال والنيجر فهم الذين عرفوا باسم البربر واشتهروا به في التاريخ».

ويضيف الشيخ أنه فيما أجمع عليه هؤلاء المؤرخون أن أصل البربر يرجع إلى جذمين اثنين هما البرانس والبتري، ومن البرانس انحدرت قبيلة صنهاجة العتيدة، ويقال أن سنهاج هو اسم الجد الأعلى الذي عرف به هذا الشعب صنهاج بن برنس ولا تزال بعض القبائل والعشائر هناك وهناك بأرض الشمال الإفريقي تدعى بهذا الاسم (صنهاجة) الذي يطلق على إثم البطن الجامع الذي تنتمي إليه قبائله وبطونه¹⁶.

14 - الأصالة عدد 72 عدد خاص بتاريخ منطقة الهقار ص 48.

15 - تاريخ إفريقيا الشمالية شارل أندري جوليان ص 72 / الدار التونسية.

16 - تاريخ الجزائر العام الجزء الثاني - الشيخ عبد الرحمن الجليلي - طبعة 03 / 1971.

وبعد أن وصف حياة الطوارق وعدّ كثيرا من قبائلهم عاد واستند على وصفهم لابن خلدون الذي يقول في كتابه: «ديوان المبتدأ والخبر، الجزء الثاني وهذه الطبقة من صنهاجة هم المثلثون الموطنون بالقفز على الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدها في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح الإسلامي، لا يعرف أولها فأصحروا على الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتصموا منها بألبان الأنعام ولحومها انتبأذا عن العمران، واستنساها بالإفراد وبوحش بالعز من الغلبة والقهر واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم¹⁷.

وهكذا يتضح وجه التقارب في التاريخ والنسب بين العرب والأمازيغ ومنها انبثق التقارب الثقافي إلى حد بعيد.

وجه التقارب الجغرافي الطبيعي:

يعد علم الجغرافيا والطبيعة والبيئة من أهم العلوم الحديثة المعتمدة في تقييس الظواهر المناخية والطبيعية والتضاريس، ومقارنة هذه الظواهر بتكيف حياة الشعوب وثقافتها من بيئة إلى أخرى وتقارب هذه الشعوب فيما بينها ثقافيا وسلوكيا أو تباعدها.

وقد أثبتت التجارب المناخية في تأثيراتها على البيئة، عن تقارب وتشابه كثير من الشعوب فيما بينها رغم بعد المسافات، كشعوب آسيا مع شعوب أمريكا اللاتينية (التبت) وتباعدا أخرى كشعوب أفريقيا مع شعوب القطب الشمالي (الإسكيمو)، ولو أخذ شخص ما الصحراء الجزائرية إلى القطب الشمالي أو ما يسمى بأوروبا الشمالية فإنه لا يستطيع التكيف مع البيئة المناخية، بينما بإمكانه أن يعيش ويتكيف مع البيئة في العربية السعودية أو اليمن، والعكس صحيح في أن رجل الإسكيمو لا يستطيع العيش في المناخ الصحراوي أو بالأحرى في المناخ المتوسطي.

وإذا ما تمت مقارنة الظواهر المناخية والتضاريس بين شمال إفريقيا وشبه الجزيرة العربية تظهر تشابهات كبيرة من حيث الجبال والهضاب والصحاري والسواحل، وكذا في المناخ المتنوع الذي يبدأ من السواحل ويتأثر بتيارات هوائية بحرية غربية تحمل لها الرطوبة والأمطار، بينما في الصحراء المناخ جاف وحار عموما¹⁸.

وهذا المناخ يشبه ما هو سائد بجزيرة العرب واليمن والشام بنفس الموصفات، ويبرز البعد الآخر في التقارب بين المنطقتين هو وجودهما على بساط رملي في غالبها وسلاسل جبلية وتلال وهضاب خاصة في اليمن والشام وهذا التشابه يمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى الخليج العربي شرقا بين خطي عرض 15 فوق خد الاستواء إلى خط 35 درجة، من دون أية عوائق بحرية وهذا ما كان قد سهل عمليات التنقل والهجرة من المشرق إلى المغرب قديما بحثا عن الأمن والعيش أو غزو مثل الإسكندر ذو القرنين.

17 - مقدمة ابن خلدون الأجزاء من 01 إلى 06 / مطبعة بولاق 1284 هـ.

18 - الصحراء - سام وأبرويل أنشتاين - طبعة 02 الجزء 02 / القاهرة 1966.

وقد دعم هذا الرأي كل من المؤرخين الجزائريين الأستاذ / أحمد توفيق المدني، في كتابه (قرطاجة في أربعة عصور) والأستاذ / مبارك الملي، في كتابه تاريخ الجزائر وأوضح أن الهجرات القديمة ساحلية كانت أو صحراوية داخلية هي هجرات أفقية عن طريق عبور النيل الأعلى والأسفل¹⁹.

وللاستشهاد على ما سلف ذكره فإن الرحالة الإدريسي كتب عن هذه الهجرات كما كتب عنها المؤرخ الروماني بروكوب الذي مات سنة 562 م، منها هجرة فينيقية وقعت في عهد (يوشع) أو (يوشع) - بعد سيل العرم - الذي تولى رئاسة اليهود إثر موت موسى عليه السلام، وغزو العبريين لکنعان.

ويضيف بروكوب أن الشواطئ التي كانت تمتد من صيدا حتى مصر كلها كانت تسمى في ذلك الوقت فينيقيا، ولما تبين للفينيقيين ظلم يوشع هذا وعدم التمكن من الانتصار عليه. قرروا مغادرة أوطانهم إلى مصر أولا ثم إلى إفريقيا في المراحل الأخرى التالية حيث توزعوا فيها بين التل والصحراء والساحل كل حسب نشاطه الاقتصادي والجرفي.

ويشير المؤرخ عثمان الكعاك من تونس، في كتابه «البربر في شمال إفريقيا» الفصل الثاني تحدث فيه عن حضارة الأمازيغ في هذه المنطقة قائلا: «من فجر التاريخ كانت حضارة الأمازيغ الأولين والوسطيين متواجدة، وهم من أصول عربية قحطانية عاربة راسخة جذورهم في حمير أصولهم من اليمن وهم يمثلون أقدم الحضارات في إفريقيا ويعد تاريخ تواجدهم بها إلى 52 ألف سنة حسب ما شهدت به الآثار والحفريات في المعابد القديمة بقسنطينة، وذهبت في نفس الرأي دائرة المعارف الإيطالية تريكاني في كلمة بربر وأكده الطبري وابن حزم في كتابهما جمهرة الأنساب²⁰.

وهكذا نرى أن التنقل من اليمن إلى شمال إفريقيا ومن فلسطين إليه كذلك ساعدت عليه العوامل الجغرافية وقد تبين ذلك أكثر بعد الفتح الإسلامي والعلاقات العقيدية والتجارية التي نشأت وازدهرت كثيرا فيما بعد.

ومما يجسد هذا التقارب الجغرافي أكثر ما أورده شيخ مؤرخي زواوة أبو يعلى الزواوي في كتابه تاريخ الزواوة، حيث يقول: «فقد اتصلت أرض المشرق بارض المغرب اتصالا طبيعيا فكان من الطبيعي أن يتصل الناس بعضهم ببعض هذا يذهب إلى ذلك فتمتزج السلالات وتتكون الأمم من هذا الاتصال وهذا التمازج، ولاشك أن أقرب الشعوب للأمازيغ من حيث الجغرافية والطبيعة هم العرب»²¹.

وفي نفس هذا السياق أورد الدكتور محمود حمدي زقزوق من جامعة الأزهر في بحث له

19 - المجتمع الليبي قبل الإسلام - عبد الجليل الطاهر - طبعة 01 ص 251 / بيروت 1969.

20 - أبو يعلى الزواوي المرجع السابق ص 32.

21 - حركات المغرب العربي عبر التاريخ / مخطوط لليعقوبي (الرباط) الخزانة الملكية.

لمفهوم وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن والسنة وفي تعداده للأبعاد المختلفة لوحدة هذه الأمة منها البعد الجغرافي الذي يقول فيه: «لقد جعل الله للأمة الإسلامية من وضعها الجغرافي الذي تتميز به في هذا العالم وحدة طبيعية جامعة تمتد في رقعة مترامية الأطراف متلاحمة الأجزاء».

ونقل الدكتور حمدي تصور الدكتور محمد عبد الله الدراز لهذه الوحدة الجغرافية الذي يقول فيها: «إنها صورة جمل ضخم قد برك على الأرض وهو في حالة النهوض نصب ساقيه الأماميتين ورفع رأسه ومد عنقه وقد سحب إلى الأمام من مشفره بحبل وتدلى من عنقه حبل ثانٍ، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل ثالث كأنه المقود في يد الراكب».

ومعنى هذا أن مبرك الجمل هو الجزء الأعظم من القارة الإفريقية المحصور بين المحيط الأطلسي وكل من البحر المتوسط شمالاً والبحر الأحمر شرقاً، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال وأوغندا، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال وأما عنقه ورأسه الممتدان في قلب القارة الآسيوية فهي إيران وباكستان، وأما الحبلان الممدودان من شفره وعنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسيوية، وأما المقود الذي يجلبه من منكبه فهو سلسلة من الأقاليم الأوروبية تبدأ من تركيا إلى شمال غربي البلطيق²².

والذي يهمننا في هذا التصوير هو ذلك التقارب بين صدر الجمل وبقيّة ظهره وبطنه وهو ما يمثل الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، ولهذه الأسباب وجدت الثقافة الإسلامية فضاء رحباً ومرتبعا خصبا ترعرعت فيهما وسمح لها بإنتاج حضارة كانت من أطول الحضارات عمرا في التاريخ، وساهم في تألقها علماء أمازيغيون اشتهر كثير منهم في العلوم الدينية والدنيوية، وتفتقت عبقريتهم على التأليف والكتابة مدركين أن الحضارة تعني التقدم المادي والروحي والأخلاقي، فبلغوا الرسالة وأناروا بها أورها التي كانت حينها في ظلام الجهل والتخلف في مختلف الميادين، ونبع هؤلاء العلماء في الفلسفة والرياضيات والفلك والطب وفي مختلف مناحي العلوم الشرعية.

ونختتم هذا الجانب من التقارب الجغرافي بكلمة للأستاذ عبد الرحمن الجيلالي أوردها في كتابه تاريخ الجزائر نقلا عن ابن خلدون الذي وصف هذه المنطقة (أي الصحراء) يقول فيها: «مناخ بلاد الهقار جاف كثيف الحرارة، حيث الأرض هناك حارة لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فهي كأرض الحجاز وجنوب اليمن...».

وجه التقارب الاجتماعي الاقتصادي:

يشارك المجتمع الأمازيغي بشمال إفريقيا مع المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية في خصائص اجتماعية اقتصادية، وهي تمثل في مجملها عناصر التقارب بين البيئتين سيما قبل الفتح الإسلامي.

22 - في الدين والأخلاق والهُمُومَةُ للدكتور محمد عبد الله الدراي ص 150/ القاهرة 1967.

لقد اهتم يوبا الثاني المؤرخ العالم الأمازيغي بالبيئة العربية وكتب عنها عدة مقالات في وصف الجزيرة العربية اجتماعيا واقتصاديا حيث كتب على العلاقة بين الرجل العربي وأسرته، وأبنائه وطرق المعيشة والحروب بين القبائل ومن تلك الكتابات يتبين أن الملك يوبا كان قريبا من العرب واهتم بشؤونهم الحياتية أكثر من اهتمامه بالبيئة الرومانية.

بيد أن ما يؤكد ذلك التقارب أكثر وينفي عنصر الصدفة هو ما يتبين من هاتين الصفتين المشتركتين بين الأمازيغ والعرب وهي: حب الحرية والتفاني في سبيلها والتضحية من أجلها وحب الشعر والتفاخر فيه بالشجاعة والحماسة.

فكل من الأمازيغ والعرب شاعرون بالفترة حيث يطلقان العنان لراحلتيهما (الخيول والإبل) كما يطلقان العنان لوجدانهما في التغني بشجاعتهما وبطولتهما، ووصف رحلات الصيد والتجارة التي تدوم أياما وشهورا، كما يعتزان بالأرض التي ولدوا فيها وتشكلت على أديمها أنماط حياتهم فهم قاهروا البرد والحر²³.

ويصف ابن حوقل وهو ذلك التاجر الرحالة الذي خالط الأمازيغ منطقة الصحراء خاصة وعرفهم عن كتب وصفا رائعا يذكر فيه قوتهم وشجاعته بقوله: «... فيهم البسالة والجرأة والفروسية على الإبل والخفة والجري والشدّة، وفيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم... ولهم خلق تام وحول وجلد عام في نسائهم ورجالهم».

والأمازيغي مثل الفارس العربي كما يعتمد على نفسه في كسب قوته حيثما وجد يصنع كذلك أسلحته ووسائل دفاعه عن نفسه من حراب وسيوف ورماح وخناجر ودروع، كما يجتهد في صنع أدوات ووسائل تخفف عنه عناء الحياة، وامتنع منذ القدم عدة حرف كالحدادة والنجارة ونحت الصخور.

وهكذا فقد اهتم كل من الأمازيغ والعرب في بيئتهم بتربية أنواع من الحيوان للاستفادة من ألبانها وأصوافها وجلودها، فعلى سبيل المثال يعتنى الأمازيغي الصحراوي مثلا كأخيه في الجزيرة العربية بتربية الإبل التي فرضتها الطبيعة والتضاريس في المنطقتين فهي الوسيلة الوحيدة للحل والترحال تحمل الثقال وجلب الأغذية والمياه، وهي أكثر انتشارا وفيها أنواع عديدة.

أما في الشمال فغالبا ما كان الاهتمام ينصب حول الخيل والحمير والبغال لصعوبة التضاريس والمناخ مثل أهل نجد باليمن تماما²⁴.

أما التجارة كذلك فلها مكانة تاريخية هامة في النظام الاقتصادي للبيئتين، ويذكر كل من ابن حوقل وابن بطوطة والإدريسي أن التجارة بشمال إفريقيا كانت مزدهرة في السواحل الشمالية أو

23 - هؤلاء الطوارق - الشيخ عبد الرحمن الجليلي - الأصاله عدد 72 ص 22.

24 - المدرسة التاريخية الجزائرية تاريخ الجزائر القديم نموذج الدكتور أحمد سليمان مجلة الثقافة العدد 119 ص 0.

عبر الجنوب ، وكانت قوافل محملة بالمواد الغذائية والمعادن الثمينة والأملح والأسلحة متداولة بين الحواضر الشمالية والجنوبية والشرق والغرب ومنها إلى إفريقيا عبر الصحراء .

أما وجه التقارب بين البيئة التجارية العربية والأمازيغية فيتمثل في تطابق الرحلات التجارية بينهما ، ففي صحرائنا رحلتان تجاربتان أحدهما تتجه نحو الجنوب النيجر ومالي والسودان وتنتقل في شهر يوليو من كل عام ، وتعود في أواخر شهر مارس أفريل محملة بالسلع والمعادن الثمينة (الذهب والجمال والذرة والمنتجات المصنوعة الحديد وغيرها) .

ورحلة ثانية تتجه نحو الشمال أي نحو أسواق تيدكنت ومشار وتوات وورقلة تبدأ في شهر يناير من كل سنة وتنتهي في شهر أفريل ويتم فيها بين الأغنام والماعز والإبل والحمير ومنتجات الألبان بأنواعها .

وهي تشبه الرحلتين لدى عرب الجزيرة وقد ذكرها القرآن باسم رحلة الشتاء والصيف فرحلة الشتاء تتجه نحو الشام وحوارن شمالا ورحلة الصيف نحو اليمن ونجد جنوباً²⁵ . بالإضافة إلى هذا النشاط التجاري المزدهر تمارس بعض الزراعات الفصلية من حين لآخر ، والأمازيغي عموماً تاجر ماهر ، وفارس حذق ، وشاعر مرهف ، وفلاح ناجح ، وصانع متقن ، وزوج وفي .

وجه التقارب في النظام الأسري والقبلي:

يبرز التقارب بين مجتمع شبه الجزيرة العربية والمجتمع الأمازيغي بشمال إفريقيا كذلك في كليات تكوين الأسرة وتأسيس القبيلة وتسييرهما وتنظيم سلطات الحكم فيها . ففي قضية الزواج وتكوين الأسرة يحدث عادة وليس دائماً من داخل الأسرة والعشيرة بالدرجة الثانية القرابة وذلك للحفاظ على السلالة والإرث خاصة لدى العائلات الحاكمة ، وكل من العربي والأمازيغي محافظ على العلاقات الأسرية والروابط القبلية ويؤدي به الوضع أحياناً إلى التضحية بحياته الزوجية ، ويعزف عن الارتباط إذا لاحظ فيه بوادر عدم الاستقرار ، أو التفريط في حق الأسرة ، وتقوم المرأة بدور هام في التقارب الأسري .

هذا وتعتبر المرأة حجر الزاوية في الشؤون الداخلية للأسرة والعشيرة والقبيلة وتقوم بمهام كبيرة كتعليم وتكوين الأبناء والبنات وفق عادات وأنساق القبيلة وتهتم بالبنات أكثر من الابن²⁶ . بينما الرجل يتولى المهام الخارجية ويعلم الأبناء الذكور الفروسية والتمرن على الأسلحة والفلاحة ، ويعتبر الرجل السلطة الرئيسية الذي ترجع إليه صلاحيات الأمر والنهي والتوجيه والإشراف على سير النظام الأسري مع التكفل بالشؤون المعيشية تجارة أو حرفة وفروسية ، ونجد المرأة تساعد في بعض الأعمال الزراعية خاصة بمنطقة القبائل ، حتى يبلغ الأولاد سن

25 - ماضي شمال إفريقيا ص 130 ، تاريخ شمال إفريقيا - بروكوب - المجلة الإفريقية 1866 .

26 - هؤلاء الطوارق - الشيخ عبد الرحمن الجيلالي - الأصاله عدد 72 ص 19 / 20 .

الزواج يشرعون بدروهم في تكوين أسرهم على نمط أسلافهم²⁷.

بعد وفاة الأب توّول السلطة إلى الابن الأكبر وهو نفس النظام للعشيرة كذلك، أما قسمة التركة فإن المجتمعين يمثلون للنظام القبلي الذي يعتمد سهمي للرجل وسهما واحدا للمرأة وقد أكدت ذلك الشريعة الإسلامية فيما بعد، باستثناء بعض المناطق والقبائل التي لا تورث المرأة وهو اتفاق الجماعة، وذلك لكون المرأة ترث عن زوجها وهي في عصمته وجزء منه - حسب بعض الآراء - وهو اجتهد خاطئ باتفاق أئمة السنة والجماعة، والأطفال يتربون في حضن القبيلة التي تنتمي إليها الأسرة وكذا الأرملة وأطفالها الصغار كثيرا ما يتكفل بهم الأعمام والأخوال وبعدهما القبيلة.

وينشأون على غرار باقي أفراد الأسر في القبيلة ولا يشعرون بأي نقص خاصة إذا قتل أبوهم من أجل شرف القبيلة، فالأولاد اليتامى يكونون محل عناية أكبر.

النظام القبلي والعشائري هو السائد كنظام سياسي في البيئتين الغربية والأمازيغية ويتميز في وقته وبفضائل عديدة منها التكتل ضد الأعداء والغزاة، والتكفل الجماعي بشؤون الحياة كل حسب المهام المنوطة به.

فحواضر الأمازيغ والعرب تتكون من عدة قبائل وكل قبيلة منها تنقسم إلى أفخاذ وعشائر وكل عشيرة تتكون من عدة أسر والأسرة القوية نفوذا في المال والرجال يختار رئيسها حاكما للعشيرة ومجموع رؤساء العشائر من الذكور يختارون رئيس القبيلة وزوجه رئيسة نساء القبيلة.

ورئيس القبيلة مخول للصلاحيات ومهام عديدة منها إبرام اتفاقات السلم والخد مع القبائل الأخرى أو التحالف معها دون قبائل أخرى ولو قريبة، فهو الذي يرى قوة كل قبيلة ومدى حجمها في المنطقة التي تتواجد فيها ويقوم بتنظيم الحياة الدفاعية والفلاحية والرعية في قبيلته كما يقوم بانتداب المزارعين والتجار والفرسان للدفاع عن القبيلة، ويتدخل أيضا في شؤون الزواج مهما كان جنس المتزوج من القبيلة ذكر أو أنثى ويعمل أيضا على إبرام صلح بين العشائر، ويتدخل حتى في شؤون الأسرة بالتربية والتوجيه.

ويستشير رئيس القبيلة في مهامه تلك رؤساء العشائر وأعيان الأسر خاصة فيما يتعلق بالحروب أو أخطار داهية أو في علاقات تهم مصلحة القبيلة ويمثل دور هؤلاء (رؤساء العشائر) دور المجالس المنتخبة أو أعضاء البرلمان.

أما الطبقة فهي مكرسة في القبيلة فهناك الأسياد النبلاء الحكام وأعضاء مجالس القبيلة وهناك أتباع غالبا في الجيش الفادة، وهناك طبقة العبيد التي تقوم بخدمة الأسياد وأسرهم، كما ينتدب جلهم للرعي والفلاحة وأعمال أخرى لا يقوم بها السادة.

لكن بعد الفتح الإسلامي تقلصت مجالات الرق في كلا البيئتين استجابة لدعوة الإسلام الحاث

27 - الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند الطوارق البقار/ الأستاذ إسماعيل العربي/ الأصاله عدد خاص العدد 72 ص 43.

على تحرير الإنسان والداعي إلى العتق وتحفيز الناس على عتق الرقاب وآيات القرآن الكريم كثيرة تنص على ذلك .

المناقشة:

امتدت أو اصر هذا التقارب بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا وأثرت الثقافة الإسلامية تعاليمها الجديدة في سلوكات المجتمع الأمازيغي، كما كان ذلك في المجتمع العربي خلال ظهور الإسلام، حيث عملت هذه الثقافة على تغيير تلك العادات والطباع التي كانت تتصل بالجاهلية والوثنية والشرك وحولتها إلى الإيمان بالتوحيد .

وكانت سهولة الفتح تعود إلى هذا التقارب بين المجتمع الأمازيغي والمجتمع العربي، فحدثت ديناميكية كبيرة في مجالات الحياة المختلفة وكانت هناك استجابة واسعة للتغيير، بما كانت تنبئ به هذه الثقافة الجديدة من الطمأنينة والأمان في الأنفس والأموال والأعراض والاستقرار في المعيشة .

فقد شهد أكثر من مؤرخ وباحث على مدى الازدهار الذي عرفه القرن الأول الهجري وأواخره وهو الذي يمثل فترة التحول الكبير، اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، وظهرت حواضر ومدن في الشمال والجنوب والشرق والغرب، كانت تعج بالفقهاء والعلماء الذين نقلوا الرسالة إلى الضفة الشمالية من البحر المتوسط كصقلية وإسبانيا وإيطاليا وأوروبا عامة، وإلى أقصى الجنوب من بلدان الساحل الإفريقي كمالى والنيجر والسنغال وغيرها .

اقتنع الأمازيغي بهذه الثقافة وتشرب وارتوى من معينها وأضحت متجذرة في حياته، وتطعمت ثقافته بها وتفاعلت معها .

إلى غاية القرن الثاني للهجرة، وهي ما يطلق عليها بفترة النقل والترجمة وشارك فيها كل من له دراية باللغات الأعجمية ولا سيما الإغريقية واليونانية، إما عن طريق الترجمة إلى السريانية واللغات المحلية .

وبما أن المجتمع المغاربي يغلب عليه الطابع الفلاحي الرعوي واحتكاكه كان مع الرومان والحضارة اللاتينية التي لم تبق في العلوم النظرية والفلسفة إلا أعمالا قليلة، بينما يغلب الجانب المعماري والفلاحي والري والزراعة بالإضافة إلى فن الخطابة والأدب والحماسة التي تتطلبها ظروف الفتوحات .

ويروي المؤرخون أن الأمير إبراهيم الأغلب الصغير كان مولعا بترجمة بعض المؤلفات اللاتينية التي تتناسب مع ذوقه وميوله، وكان يوجد في حاشيته جماعة من الموالى الصقليين المتميزين بثقافة ودراسية كالفتى (سودة النصراني) والفتى (بلاغ) و (شكر) وغيرهم ممن يلتقي معهم في جلسات ثقافية حوارية .

ومما يؤيد هذا الرأي ما ذكره حسن الوزاني الذي كان يلقب (بالأسد الإفريقي) في رحلته المشهورة من أنه رأى في بلاد إفريقيا ترجمة كتاب (بليوس الروماني) في علم النبات باللغة العربية مع العلم أن هذا الكتاب لم تقع ترجمته في فترة عبد الرحمان الناصر بالأندلس، ولا في أيام ابنه الحاكم الثاني.

ليس بعيداً أن تظهر مستقبلاً أبحاث تكشف فيها نقل أهل إفريقيا الشمالية ما كان متعارفاً لديهم من العلوم اللغوية اللاتينية الأخرى.

الخاتمة

بعد وصول الإسلام إلى هذه الديار الأمازيغية حدثت طفرات وتحولات واضحة المعالم في المجتمع، وكان من بينها ما حدث من عبور للعناصر الثقافية من الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الأمازيغية في جميع المجالات المأكّل والملبس والعبادة والسلوك، والفنون والأدب وهي تهدف إلى استنهاض النفوس وشحن الهمم نحو آفاق إنسانية شاسعة وتتجسد فيه معالم العدل والإخاء والتكافل والتضامن في فضاء تنافسي شريف يحفظ لكل حقوقه.

وبتحليل بسيط لأحداث التاريخ واستقراء وقفاته يتضح أنه لو لم يكن هناك تقارب وتآلف بين المجتمع الأمازيغي والمجتمع العربي في المستويات اللغوية والاجتماعية والسياسية والثقافية والجغرافية والتاريخية ما كان لتنتج تلك الفتوحات، وما كان ليتطوع أبناء الأمازيغ في هذه الربوع للإسهام في نشر الإسلام في أوروبا شمالاً وإفريقيا جنوباً.

هذا من جانب ومن جانب آخر رغم أن المجتمع كان يطغى عليه الجانب السياسي والعسكري لكنه كان يتفاعل داخلياً ضمناً لينشئ فيما بعد حضارة إسلامية عربية أمازيغية انمحت بينهما كل الفوارق العرقية والجنس، وشهد لها التاريخ الإنساني في كل المراحل.

وبالله التوفيق